نحو مشروع سياسي فلسطيني واضح

في ما يتعدّى الشهادةَ... والخيبة!

. فـــيـــصل درّاج * .

ما الذي مثّلته، فلسطينيّاً، منظّمةُ التحرير، عند نشوئها في مطلع العام ١٩٦٥؟

وماذا تمثِّل في عام ٢٠٠٦، بعد أنْ أزاحتْها «حماس،» ديموقراطيّاً، عن مواقعها؟

وهل هي قادرةٌ، بعد أن اعترتْها أمراضٌ متعاقبةٌ، على تمثيل القضية الفلسطينية في المستقبل؟

أسئلة ثلاثة قد يَطْرحها الفلسطينيون المتمسّكون بقضيتهم، أكانوا في «أرض السلطة،» أمْ من الحالمين بحقّ العودة (الذي تَقْفز فوقَه أصواتٌ فلسطينيةٌ رسمية). أسئلة ثلاثة تترجَم انتقالاً متدرِّجًا: من أراضي الوعود الكبيرة، إلى أرضٍ ضيّقةٍ يظلِّلها اليأسُ أحيانًا.

ثمة ثلاثُ وقائع بَدَتْ للفلسطينيين، منذ منتصف ستينيات القرن الماضي، وعودًا كبيرةً: قيامُ منظمة التحرير تعبيرًا عن إرادة وطنية مستقلّة، وصعودُ الكفاح المسلّح الذي أراد أن يُحلَّ مَحلّ الشعوبِ العربية الرسمية أداةً كفاحيةً شعبية، ووصولُ ياسر عرفات إلى غزّة مبشِّرًا بدولة فلسطينية عاصمتُها القدس. بَيْدَ أنّ هذه الوعود ما لبثت أنْ سقطتْ: فلا منظمةُ التحرير كانت دائمًا مستقلّةَ القرار؛ ولا الكفاحُ المسلّحُ عَثَرَ على شروطه وأدواته الصائبة؛ ولا قامت الدولةُ الموعودةُ، التي اكتسح التهويدُ عاصمتَها المنتظرة. ولهذا يبدو نجاحُ «حماس» اليوم إعلانًا عن تأجيل التفاؤل الفلسطيني إلى أجلٍ غير مسمّى، وانتهاءِ حقبةٍ من العمل الوطني استمرّت أربعةَ عقود.

ومع ذلك، فإنّ في صعود «حماس،» التي بَعثتْ في الفلسطينيين في العقد الأخير روحًا كفاحيةً جديدة، ما يَفْرض السؤالَ التالي: هل تستطيع هذه الحركة أن تحقِّقَ ما عجزتْ منظمةُ التحرير عن تحقيقه؟

لا تَصْدر الإجابةُ عن نوايا حماس، بل عن تاريخٍ فلسطينيّ جاء بالشهداء ولكنّه لم يلتفت كثيرًا إلى مشروعٍ سياسيٍّ واضحٍ وممكن.

I ـ سياسة منظّمة التحرير: أولويةُ الوطن أَمْ أولويةُ المؤسسة؟

بعد عام ١٩٤٨ فسّرت «النخبةُ الفلسطينيةُ» سقوطَ فلسطين بكلماتٍ محدّدةٍ واضحة: تخلُّفُ القيادة السياسية الفلسطينية، وانشدادُها إلى مصالح طبقية ضيّقة، وارتهانُها إلى إرادات عربية رسمية تَجْمع بين التخلّف والامتثال إلى إرادات استعمارية. لذا بدا قيامُ منظمة التحرير نقضًا كيفيّاً للإرادات التقليدية، يُتَرْجمه خطابٌ حديثٌ ووسائلُ سياسيةٌ إيديولوجيةٌ لا تُعْوِزها الحداثةُ. وقد حمل ذلك الخطابُ في تضاعيفه ثلاثَ مقولات:

١ ـ التفاؤل، الذي يَعْطف التجربةَ الكفاحيةَ الفلسطينية على تجاربَ ثوريةٍ عالميةٍ منتصرة.

٢ ـ وحدةُ الإرادة الوطنية، التي تضع الواحدَ في الكلِّ والكلَّ في واحد (وهذا هو معنى منظّمة التحرير).

٣ ـ الكفاح المسلّح، الذي يَشْتقّ من البندقية وحدَها إنسانًا جديدًا.

وواقعُ الأمر أنّ الحداثة الوطنية المفترضة كانت معطوبةً منذ البداية. وزاد عطبُها حين ذَهبتْ لاحقًا إلى اتفاق أوسلو، الذي أَحلَّ كابوسَ السلطة محلَّ حُلم الدولة. فمنذ البدء تقزّمت الإرادةُ الجماعيةُ في سلطةٍ واحديةٍ، تَخْتزل «الجبهةَ الوطنيةَ» إلى مؤسسة الرئاسة. ومنذ البداية طَردت «الموالاةُ» المعيارَ الأخلاقي والجدارةَ الفكرية. ولم تكن تلك الواحديةُ القائمةُ على الولاء، والتي رفضتْها قياداتٌ مغايرةٌ تمارس الواحديةَ بدورها (!)، إلاّ مدخلاً واسعًا لسياسةٍ لا رقابةَ عليها، تستدعي الفسادَ وترعاه... حتّى غدا الفسادُ، بعد زمنٍ، بداهةً من البداهات الكبيرة في منظمة التحرير.

* ـ ناقد فلسطيني مقيم بين دمشق وعمّان. يَصْدر له قريبًا عن دار الآداب كتابٌ ضخمٌ عن الرواية العربية.

لم تَقْدر «حماس» على أن تصبح ما أصبحتْه لولا عنصرٌ أخلاقيّ نوعيّ أَمَّنَ لها قسطًا عاليًا من الاحترام والثقة.

أَنتج الفسادُ، الموطَّدُ بالموالاة، سياسةً فرديةً تستدعي أسطورةَ «القائد المخلِّص،» التي هي عرفٌ عربيٌّ سلطويٌّ. والجوهري في هذا كلّه هو استئنافُ «القديم،» الذي قالت منظمةُ التحرير بنقضه ذاتَ مرّة؛ ذلك أنّ الواحدية، الموطَّدةَ بموالاةٍ فاسدةٍ، مرآةٌ للتخلّف والبوار ولجملة القيم التي تَرْفضها الحداثةُ السياسية. فقد كان من المفترض أن تكون منظمةُ التحرير تجسيدًا للحداثة السياسية كي تكون على مستوى الأهداف الصعبة القائلة بها، وبديلاً كيفيّاً عن «الهيئة العربية العليا» التي تحدّثتْ باسم القضية الفلسطينية قبل قيام إسرائيل وبعدْه. ولعلّ استئنافَ «القديم المتخلّف» هو الذي أفضى إلى سياسةٍ فلسطينيةٍ عامرةٍ بالتناقضات: عزلُ الكفاح المسلّح عن «الدبلوماسية،» والقولُ بتحرير فلسطين في أبنيةٍ تنظيميةٍ لا حريّةَ فيها، والحديثُ باسم «المجموع» دون الاعتراف به!

لا غرابة، في شرطٍ كهذا، أن تَطْرح منظمةُ التحرير جملةَ شعاراتٍ موسمية تختلف باختلاف السياق والمناسبة: بدءًا بالتحرير الشامل، وصولاً إلى السلطة المستقلّة، مرورًا بالدولة العلمانية الديموقراطية، وبدولةٍ ثنائية القومية، وبالسلطة فوق المناطق المحرَّرة. والحقّ أنّه ليس المطلوبَ، هنا، تقويمُ صحة هذه الشعارات أو عدم صحتها ـ فالمساومة في النهاية مفهومٌ سياسي صحيح ـ بل المقصود هو الإشارة إلى «السياسة الموسمية،» التي هي نفيٌ فعليٌّ للسياسة في معناها الصحيح. ولا غرابة أيضًا، في شرط كهذا، أن يتمّ حجبُ السياسة الصهيونية في واقعها الفعلي، والاكتفاءُ غالبًا بصورةٍ ذهنيةٍ لها تَنُوس بين طرفَيْن: فإمّا شيطانٌ رجيمٌ، وإمّا «شريكٌ سلمي.»

أَخذت السياسةُ الموسميةُ، كما تجلّتْ في مفاوضات أوسلو عامَ ١٩٩١، بثلاثة مبادئ: العموميةُ السياسيةُ التي لا تكترث بالوضوح وتتجاهَلُ قراراتِ الأمم المتحدة الواضحة؛ والفرديُّ الذي يُلغي الجماعيَّ (فوراءَ الوفد المفاوض كان هناك وفدُ الرئاسة)؛ والتشاطرُ البلاغي الذي يحوِّل المفاوضَ الإسرائيلي إلى «صديق» ـ وهو شيءٌ يُذكّر بحديث السادات مع كيسنجر، حيث حرارةُ اللقاء تَطْرد التاريخَ والذاكرةَ. وعلى هذا، فإنّ الأمر لا يقوم في «واقعية» ياسر عرفات السياسية، وهو المحاصَرُ أبدًا، بل في الأدوات اللاواقعية التي تَنْشُدُ «سياسةً واقعيةً.» فإذا كانت الواقعيةُ السياسية تأمر بالمساومة في شروط محدَّدة، فالمطلوب المنطقي أن تكون المساومةُ واضحةً، تُدْرك الأسبابَ التي أَمْلَتْها، وتُدْرك النتائجَ التي وصلتْ إليها. وبهذا المعنى يتكشّف عُثارُ «السياسة الفلسطينية» في الفصل بين المفاوضات وأدواتها الموائمة، وفي الفصل الموازي بين المفاوضات والنتائجِ الواضحةِ الصادرةِ عنها.

في هذا كلِّه كان الإسرائيليون يذهبون إلى هدفٍ يَعْرفونه، وكان الفلسطينيون يذهبون إلى هدفٍ يتوهّمونه. ولعلّ الخلطَ بين الوهم والحقيقة هو الذي حَوَّلَ «عمليةَ السلام» إلى كابوس كبير؛ ذلك أنّ منظمة التحرير توقّعتْ شريكًا سلميّاً، ناسيةً أنّ الشراكة الفعلية تحتاج إلى اتفاقٍ غيرِ اتفاق أوسلو. أكثر من ذلك: توقَّعَ الفلسطينيون **دولةً**، وانتظر الإسرائيليون **سلطةً** تَقْمع الانتفاضةَ وتوفِّر على جيشِهم أعباءً كثيرةً. وبسبب ذلك تنصَّلَ القادةُ الإسرائيليون بشكلٍ متصاعدٍ من «عملية السلام،» إلى أن أَعلن أريبل شارون عن نهايتها عامَ ٢٠٠٠، معبِّرًا عن وعيٍ صهيوني متّسق يَقْبل ببعض الفلسطينيّين فوق أرضٍ غيرِ فلسطينية.

أراد الإسرائيليون من اتفاق أوسلو إنجازَ أهداف ثلاثة: ١ ـ حلُّ القضية الإسرائيلية بدلاً من حلّ القضية الفلسطينية. ٢ ـ إنهاءُ منظمة التحرير، أو عزلُها، بوسائل رادعة تقودها إلى رفضِ «السلام المزوَّر» والتحوّلِ تاليًا إلى «منظمة إرهابية،» أو القبولِ به

مازال الفلسطينيون يَعْقدون العزمَ على تحرير فلسطين، دون أن يَعْقدوا العزمَ على مواجهةِ تاريخهم!

وخسرانِ اعتراف الشعب الفلسطيني بها. ٣ ـ الاعتراف الفلسطيني، ممثَّلاً بمنظّمة التحرير، بشرعية الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية. غير أنّ عرفات رَفَضَ الأهدافَ الثلاثة، ولذا كان عليه أن يَرْحل. فكأنّ إسرائيل استقدمتْه ـ باسم السلام ـ إلى مكان يَسْهل القضاءُ عليه فيه. ولم يكن رحيلُ عرفات، وهو رمزُ القضية الوطنية لعقود، إلاّ رحيلاً لمنظمة التحرير، التي وَضَعَتْ لذاتها هدفًا لم تستطع تحقيقَه.

خمسةُ أسباب أدّت إلى انهيار منظمة التحرير: ١ ـ سياستها اليومية أو الموسمية، التي هي نقيضُ المشروع السياسي، الذي يتّسم بالديمومة والتكامل والوضوح. ٢ ـ تطبيق السياسة المذكورة على موضوع خطير هو «اتفاق أوسلو» الذي قَذَفَ بالفلسطينيين إلى جحيم جديد. ٣ ـ الفساد الشديد الذي خلَقَ مسافةً متصاعدةً بين الشعب والمنظمة. ٤ ـ الدور الإسرائيلي، الذي مَنَعَ عن الفلسطينيين الأمانَ، ووَضَعَ الرمزَ الفلسطيني الأكبر، الذي قبل بـ «العملية السلمية،» في الإقامة الجبرية. ٥ ـ «حماس.» فهذه الحركة بقيتْ محدودةَ الصوت حتّى اكتشفتْ أنّ سلام عرفات لن يأتي بالسلام، وعندها بدأتْ حربًا شديدةً ثنائيةَ الاتجاه: تَقصف عرفات وهي تَقْصف إسرائيلَ، وتَقْصف إسرائيلَ موطِّدةً العزمَ على إسقاطِ منظمةِ التحرير.

II ـ سياسة حماس: مع فلسطين وضدّ منظمة التحرير!

ظَهرتْ «حماس» مع الانتفاضة الأولى (١٩٨٧) فصيلاً سياسيّاً أساسيّاً لا ينشدّ كثيرًا إلى الحوار مع منظمة التحرير لأنّه مشدودٌ إلى وراثتها! ويعود سببُ الجفوة إلى منتصف سبعينيات القرن الماضي، حين رَفضت الجماعةُ الإسلاميةُ الفلسطينية العملَ الوطنيَّ والمنظّماتِ اللادينيةَ التي تقوده، معتقدةً أنّ تحرير فلسطين يقضي أولاً بتحرير العمل السياسي الفلسطيني من النزوعات الإيديولوجية التي تسيطر عليه. أما طموحُ الوراثة فله أكثرُ من سبب: الخصومةُ الفكرية التي تميِّز بين الوطني والإسلامي؛ وضعفُ منظمة التحرير بعد الخروج من بيروت والمراوحة في تونس؛ والتغيّراتُ الدولية؛ واختلافُ المناخ الإيديولوجي...

وواقع الأمر أنّ منظمة التحرير بقيتْ، رغم نقائصها الكثيرة، مسيطرةً حتّى بعد اتفاق أوسلو، لا بسبب رمزية عرفات فقط، بل لاقتناع غالبية الفلسطينيين أيضًا بأنّ شعار «التحرير الشامل» مجرّدُ رغبةٍ غير قابلة للتحقّق. لذلك لم تبدأ معركةُ الوراثة إلاّ بعد أنْ ظَهَرَ جليّاً أنّ الإسرائيليين لا يريدون إنهاءَ الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، بل يريدون إنهاءَ ما مثّلتْه منظمةُ التحرير كقوّة شرعية فلسطينية تحظى باعترافٍ عربي ودولي. وما إنْ بدأ شعبُ «السلطة الوطنية» يصحو على خيبته المتعددة الاتجاهات، حتّى اتّخذتْ «حماس» من اتفاق أوسلو موضوعًا لمعركتها، فقَصَفتْ عرفات بحجّة تبديد الحقّ الفلسطيني، وقَصَفتْ إسرائيلَ لأنّها تَمْنع عن الفلسطينيين حقوقَهم المشروعة. وحين تزايد العسفُ الصهيوني، بدت معركةُ «الحق الفلسطيني» مدخلاً واسعًا إلى تنصيب «حماس» قوّةً سياسيةً حاسمة. وقد ساعد على ذلك تداعي الأداء السلطوي، الذي أضاف إلى نقائصَ قديمةٍ نقائصَ جديدةً.

لا يُمْكن تعريفُ ظاهرة «حماس،» في الحالات جميعًا، بالسَّلْب فقط، أيْ بالتعيُّش على زيف عملية السلام ومَفاسِد السلطة وخيبةِ الفلسطينيين. فممّا لا شك فيه أنّ تلك الحركة لم تكن قادرةً على أن تصبح ما أصبحتْه لولا عنصرٌ أخلاقيٌّ نوعيٌّ أَمَّنَ لها ـ قادةً وأفرادًا عاديين ـ قسطًا عاليًا من الاحترام والتقدير والثقة. وليس المقصودُ بذلك أفواجَ الشهداء المتلاحقة من «حماس» فحسب ـ فليس ثمة فصيلٌ وطنيٌّ فلسطينيٌّ اقتَصَدَ في موضوع الشهادة والشهداء ـ وإنما

منظمة التحرير هي الإنجاز الوحيد الكبير في المسار الكفاحي الفلسطيني، لكنّها محاصَرة بين «إسرائيل» و«حماس.»

المقصودُ توحيدُ «حماس» للقول والممارسة معًا، أي الاهتمام بالناس والإقامة بين الناس. فكأنّ «حماس» وحّدتْ بين المسؤولية الوطنية والاجتماعية والأخلاقية في آن. واعتمادًا على هذه العناصر مجتمعةً، استطاع هذا التنظيمُ، المتجذّر شعبيّاً، أن يَصْمد أمام الهجمات الإسرائيلية التي حَرَمَتْه جملةً من القيادات الكبيرة النوعية. ومع هذا، فإنّ أخلاقية «حماس» العالية لا تعني تقويمَ دورها الوطني أخلاقيّاً؛ ذلك أنّ تقويمَ العمل الوطني يبدأ وينتهي بمفرداتٍ سياسية.

شَنّتْ «حماس،» بعد أوسلو، حربًا على إسرائيل وهي تشنّ حربًا على منظمة التحرير. وردّت إسرائيلُ بحرب على «حماس» وهي تحارب المنظمة التي تشجِّع «الإرهاب.» وقد تعيّنتْ هذه الحربُ بطرفيْن فاعليْن يَدْفعان بمنظمة التحرير إلى العجز والشلل وتلقّي الاتهام. وهذه الحرب، التي يتقاسمها طرفان لا يريدان السلامَ لأسباب مختلفة، أَنتجتْ ظاهرةَ شارون، الصهيونيِّ المتشدّدِ الذي يجتثّ الفلسطينيين بدعوى «الأمن» ويلتفّ حوله الإسرائيليون الذين أرعبتْهم العملياتُ الانتحارية. ولكنّها أَنتجتْ أيضًا، وبشكلٍ متساوقٍ، ظاهرةَ «حماس،» التي تنتقم من الإجرام الإسرائيلي، ويرى فيها الفلسطينيون ذراعَهم الحديديةَ المنتصرة. هكذا خَرَجَ ياسر عرفات / أو منظمة التحرير، وهما سواء، من ساحة القرار السياسي، حتى كأنّ «حماس» قد باتت هي الطرفَ الفلسطينيَّ الأساسيَّ الذي يحدّد «الهدنةَ» سلبًا أم إيجابًا. ومع أنّ المنطق الشكلي، الذي لا تَنْقصه الغيرةُ الوطنية، لا بدّ أن يرى في ذلك ظاهرةً فلسطينيةً تواجه إرهابًا إسرائيليّاً طليقًا، فإنّ ما لا يُمْكن تغييبُه هو أنّ المحاصَرَ بينهما (إلى تخوم التهميش) هو منظمةُ التحرير، التي هي الإنجازُ الوحيدُ الكبيرُ في المسار الكفاحي الفلسطيني! بل كأنّ حرب «حماس،» بوعي أو من دونه، انتهت إلى تدمير السياسي الوطني الفلسطيني دون غيره؛ ذلك لأنّ شارون استمرّ في نهجه وأعاد خَلْقَ الخريطة السياسية الإسرائيلية من جديد.

في أخلاقية «حماس» العالية ما يثير الفضول: فهي لا تقتصد في الشهداء بقدْر ما تأخذ بسياسةٍ لا تفيد القضيةَ الفلسطينيةَ كثيرًا. فمقولاتُ التنافس والمحاسبة والتنديد والوراثة لا تتفق مع قضية شعبٍ محاصَرٍ يحتاج أولاً إلى الوحدة الوطنية الحقيقية، سواء كان الناطقُ باسمه «إسلاميّاً» أو «وطنيّاً.» ولعلّ هذه السياسة، التي تضع الإسلاميَّ في مواجهة الوطني، تحتاج إلى الكثير من التأمل والمساءلة. فالمنطق السليم يَفْرض على الطرف الضعيف الذي يصارع طرفًا قويّاً أن يَبْتكر سلاحًا يُشْتَقُّ من ضعفه (مثل ثورة الحجارة)، لا أن يَأْخذ بسلاح عدوِّه القويّ. لذا كانت العمليات الاستشهادية تَحْمل نهايتَها في بدايتها، لأنّ في الترسانة الإسرائيلية ـ الموطَّدةِ بتاريخ إجراميٍّ أثيل ـ ما يعاقب الفلسطينيين جميعًا ويُجْبرهم، في النهاية، على الرضا بأشكالٍ مختلفةٍ من «الهدنة.» وهذا ما يَأْمر، بداهةً، بعقلنة الكفاح، بما يَجْعل الشعبَ الفلسطينيَّ يدَّخر قدرةً مستقبليةً، لا أن يَفْقد قدراتِه في معارك قصيرةِ الأمد. والسؤال المُلِحّ في تجربة «حماس» هو: هل المنشود هو استمراريةُ المطالبة بالحق الفلسطيني، أمْ تأكيدُ أنّ «الهدنة» يقرّرها الطرفُ الإسلاميُّ لا الطرفُ المغاير؟

والسؤال الفلسطيني الأخير هو: هل المطلوب انتصارُ الحقّ الفلسطيني على الظلم الإسرائيلي، أَم انتصارُ «حماس» على منظمة التحريرِ التي هي الإنجازُ الأكبرُ في تاريخ الكفاح الفلسطيني؟

III ـ وعود قديمة وسياسات قديمة

يقرِّر نجاحُ «حماس» في الانتخابات الأخيرة أطروحتيْن. **الأولى** أنّ «حماس» لم تنجحْ بفضل كفاحها المسلّح؛ فقد قامت منظمةُ التحرير عليه ومارستْه

المطلوب كتلةٌ واحدةٌ تحافظ على البقاء في فلسطين، وعلى البقاء من أجل العودة إلى فلسطين.

عقديْن من الزمن. ولم تنجحْ لمطالبتها بـ «التحرير الشامل»؛ فقد عرف الفلسطينيون مشروعَ عرفات وحدودَه وارتضوْا به قائدًا وحيدًا حتّى رحل. وتقول الأطروحةُ **الثانية** إنّ كفاحَ «حماس» المسلّحَ لم يُسْقِطْ إسرائيلَ بل أَسْقط منظمةَ التحرير، التي كان إسقاطُها مشروعًا إسرائيليّاً منذ زمن. وواقع الأمر أنّ الرفض الإسرائيلي الحاسم لأيّ شكل من أشكال السلام توافَقَ مع رفض «حماس» له؛ الأمرُ الذي جعل من العمل الكفاحي الاستشهادي، كما الردّ الإسرائيلي عليه، أداةً دَفَعَتْ بمنظمة التحرير، إلى جانب أسباب أخرى، إلى السقوط.

بهذا المعنى، فإنّ «حماس» لم تَرِثْ منظمةَ التحرير كفاحيّاً، بل وَرِثَتْ قبل كلِّ شيءٍ الرفضَ الإسرائيليَّ للسلام، موطِّدًا بنواقص المنظّمة الإدارية الكثيرة. وسواء ارتَضَتْ «حماس» الاعترافَ بإسرائيل أو لم ترتضِ به، فالمآلُ النهائي لا تغيير فيه، ما دامت إسرائيلُ لا تعترف بالفلسطينيين ولا بحقوقهم. ومع ذلك، فإنّ سياسة «حماس» الراهنة تجعل الموقفَ الإسرائيليَّ أكثرَ «مشروعيةً» ـ بالمعنى الزائف قطعًا ـ بحجةِ أنّه لن يَعْترف بطرفٍ فلسطينيٍّ لا يَعْترف به أصلاً!

وفي الحالات جميعًا، يبقى المأزقُ الفلسطيني مراوِحًا مكانَه، مع نزوع إلى مزيدٍ من التدهور: فلا إسرائيل راضيةٌ بما رضي به الشعبُ الفلسطيني؛ ولا الشعبُ الفلسطيني قادرٌ على مواجهةٍ عسكريةٍ مستديمة، لا بسبب الإرادة بل بسبب الإمكانية. ولهذا فإنّ انتقال الفلسطينيين، في الانتخابات الأخيرة، من خيارٍ سياسي إلى آخر تعبيرٌ عن يأسٍ متعدِّدِ المصادر:

يأس من موقفٍ إسرائيليّ لا يَقْبل بالسلام، ويأس من سياسةٍ فلسطينيةٍ رسمية لم تُفْضِ إلى شيءٍ سعيد، ويأسٍ من موقفٍ عربي انسحب من الصراعِ الفلسطيني ـ الصهيوني واستراح.

في مواجهة العنف الإسرائيلي المغلق، أو الانغلاق الإسرائيلي العنيف، يتبقّى للفلسطينيين، وطنيّاً وأخلاقيّاً، أن يشكّلوا كتلةً واحدةً موحَّدةً، بعيدًا عن انقسامٍ لا يلبِّي في النهاية إلاّ الأغراضَ الصهيونية. وبداهةً، فإنّ كتلةً كهذه لا معنى لها خارجَ برنامج سياسي واضح الأغراض، سواءٌ قَبِلَ بالكفاح المسلّح أوَ رَفَضَه (لأنّ هذا الكفاح لم يعطِ شيئًا كثيرًا)، وسواءٌ قَبِلَ الاعترافَ بإسرائيل أَوْ رفضه (ما دام هذا الاعترافُ، كما غيابُه، لم يأتِ بمفيد). يتعيّن الوضوحُ السياسي، بهذا المعنى، بحزبٍ سياسي قادر على البقاء، يلتفّ حوله الفلسطينيون في الأراضي المحتلة والشتات، يؤكّد الهويةَ الوطنيةَ والحقَّ التاريخي، ويَسْتنفر الإمكانيات الفلسطينيةَ، وهي كبيرة، في الدفاع عن الحقّ الفلسطيني. حزبٌ سياسي يدور حول هدف محدّد هو: الحفاظ على البقاء في فلسطين، والحفاظ على البقاء من أجل العودة إلى فلسطين.

وقد يبدو هذا الشعارُ لأصحاب الكلمات المترهّلة والعقول المستقيلة لا معنى له، ما دام شعارُ «التحرير الشامل» أكثرَ عنفًا وأشدَّ وضوحًا. وواقعُ الأمر أنّ ذلك الشعار، الذي يبدو متواضعًا، يستدعي أمريْن:

أولُهما أنّ الشعب الفلسطيني، منذ عام ١٩٤٨، لم يَعْرفْ مأزقًا خطيرًا مثلَ المأزق الذي يعيشه اليومَ. فبعد النكبة كان شعارُ «العودة،» وبعد الكفاح المسلّح اللاحق كان شعارُ «التحرير،» وبعد محاصرة الكفاح كان شعارُ «الواقعية السياسية،» وبعد الشعار الأخير جاء السديمُ الذي يَقْضي بالمراجعة النقدية الصارمة للتاريخ الكفاحي الفلسطيني الذي أعطى كلَّ شيء ولكنّه انتهى إلى لا شيء. فالحال أنّه لا يُمْكن تفسيرُ كلّ شيء بالإجرام الصهيوني المطْلق السَّراح، بل هناك سببٌ ذاتيٌّ جديرٌ بالتأمّل والمحاكمة.

وثانيهما، وهو مشتقّ من الأول، قوامُه الإجابةُ على ما يلي: كيف يُمْكن استنهاضُ الشعب الفلسطيني وتنظيمُه وتوحيدُه، في الداخل والشّتات، إنْ لم يكن أمامَه هدفٌ واضحٌ محدّد قابلٌ

كيف نجح حزبُ المؤتمر في جنوب أفريقيا في المزج بين السياسي والعسكري، في حين أخفق الفلسطينيون؟

للتحقّق؟ لماذا نَجَحَ حزبُ المؤتمر في جنوب إفريقيا نجاحًا كاملاً، في حين فشل الفلسطينيون فشلاً كاملاً، على الرغم من تشابُهِ الوضعيْن؟ كيف نجح ذلك الحزبُ في المزج، وفقًا للظروف، بين السياسي والعسكري، في حين أَخفق الفلسطينيون إخفاقًا محزنًا؟ ربما يَكْمن الاختلافُ الجوهريُّ بين الحاليْن في معنى «الحزب»: فهو يتحوّل لدى طرف إلى كلمةٍ فقيرةِ المضمون؛ ويستحيل لدى طرفٍ آخر إلى متخيَّلٍ خصيبٍ يساوي بين الحزب وممارسةِ السياسة، وبين السياسة والحوار المنتَج بين المعنيين بلا مراتب ولا طبقات.

أيّاً يكن الأمرُ، فإنّ المطلوبَ، أولاً وأخيرًا، مراجعةٌ نقديةٌ للتاريخ السياسي الفلسطيني، الذي حارب عدوّاً غيرَ تقليدي بأدواتٍ تقليدية، وأدار «الحوارَ» مع عدوّه بأساليبَ فقيرةٍ، وزرَع في تربةِ «سلطةٍ وليدةٍ» كلَّ الأمراض السلطوية المنتشرة. إنّ العلاقة بفلسطين لا تُخْتصر في الشهادة والتضحية ـ فلو كان الأمرُ كذلك لانتصر الفلسطينيون وإنْ بقَدْرٍ ما ـ وإنّما يتعيّن بممارسةٍ عقلانيةٍ ووعيٍ محسوبٍ، بعيدًا عن القدَرية والطمأنينة والمعادلات المجرَّدة.

ما زال الفلسطينيون، عقدًا بعد عقد، يَعْقدون العزمَ على تحرير فلسطين، دون أن يَعْقدوا العزمَ على مراجعةِ تاريخهم الكفاحي، الذي أَدْمن، ربما، الشهادةَ والخيبةَ... في انتظار زمنٍ نجيبٍ لا يَفْصل بين الكفاحِ الوطني والسياسةِ العقلانية.

دمشق

في العدد القادم من الآداب

- **قصص: ناصر الربّاط، محمد العلوي العماري،...**
- **الحركة الشيوعية العربية: رفعت السعيد، خليل كلفت.**
- **دراسات أدبية: سامي مهدي،...**